

بعض صفات الله في القرآن



لا نرى ديناً يصف مقام الألوهية وما يليق بها من كمال ومعرفة كما يفعل الإسلام، فالدارس للقرآن يستشعر من خلال آياته - في وصف الخالق - شعوراً مليئاً بالخشوع والانبهار لهذه الذات الإلهية التي لا يحدها فكر ولا يحيط بها عقل.

والذي يجعل الإنسان في منأى عن الإشراك بالله هو الاعتقاد برابطة وصلة تجمعه بهذه القدرة الإلهية، فأى حاجز وأي وسيلة بينه وبين الذات الإلهية من الدواعي للإشراك به، ولهذا نرى الإسلام يجعل بين الله والناس رابطة لا تلجئهم إلى الاستعانة بغيره.

وإلى القارئ عرضاً مختصراً لهذه الصفات والروابط التي جعلها الله بينه وبين الناس:

قدرة الله تعالى:

الكون وما يحتويه من كائنات حية وغير حية أثر من آثار قدرة الله أبداعها من العدم، إنَّها قدرة شاملة في نواحي هذا الكون لا يعجزها شيء البتة، هذا ما أعلنه القرآن:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الملك/ 1)،
(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ لَهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّ لَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الحج/ 6).

إنَّها قدرة تنتج ولكن إنتاجها أعلى وأسمى وأكثر من مجموع إنتاج البشر، فالعقل البشري مجالته في معرفة وصنع الأشياء محدودة بخلاف قدرة الله التي لا تقف عند حدٍّ. فالحشرة، وهي من أبسط مخلوقات الله لا تستطيع البشرية بآجمعها خلقها. هذا هو الفرق الشاسع بين قدرة الإنسان وقدرة الله اللامتناهية

التي صورها القرآن بقوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُربَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ السَّاعِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ) (الحج/ 73).

وآثار القدرة الإلهية التي نشاهدها في هذا الكون تدل على طاقة لا تقف عند حد، فمن المعلوم أن جميع ما على الأرض من طاقة مستمد من نور الشمس، والشمس نجم كسائر ما نرى في السماء من نجوم لا يحصى عددها إلا، فما هو مبلغ تلك الطاقة العظيمة التي تشعها أنوار هذه النجوم في هذا الكون؟

هذا هو مثل لقدرة الله نضعه للإنسان ليتخيل مبلغ عظمة قدرة الله التي صورها القرآن في هذه الآية الموجزة الرائعة: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (النور/ 35).

وقدرة الله تتغلغل في صميم حياة الإنسان، فلا داعي للالتجاء إلى غير الله للحصول على مرغوب واجتناب مكروه لأن ذلك لا يملكه غيره. جاء في القرآن: (وَإِنَّ يَمْسِكُ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يَمْسِكُ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْغَاثِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْخَبِيرُ) (الأنعام/ 17-18).

وقدرة الله سارية في خلق الذكور والإناث، فلا داعي للالتجاء إلى آلهة أو الارتماء في أحضان الدجالين للحصول على ولد. جاء في القرآن في وصف قدرة الله:

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْ شَاءَ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) (الشورى/ 49).

(وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا) (الشورى/ 50).

وقدرة الله نافذة في إعزاز الأُمم وإذلالها، قال الله تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران/ 26).

فكم من الأُمم بلغت منزلة عالية من السلطان والنفوذ ثم استذلت؛ وكم من الملوك والزعماء بلغوا أرفع منازل الجاه ثم وصلوا إلى نهاية مؤلمة من قتل وسجن ونفي.

إنَّ المؤثر والموجَّه في مصائر الشعوب والأفراد هو الله وحده فلا حاجة للالتجاء إلى غيره، ولكن في سبيل الحصول على حياة أفضل يصرح القرآن: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِيَعُومٍ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بَأْنَفُسِهِمْ) (الرعد/ 11).

هذه الآية العظيمة تصرح بأنَّ سُنة الله جرت بأن لا يغيّر حال الأُمم من شفاء إلى سعادة إلا إذا غيّر الأفراد والجماعات ما بأنفسهم فالأُمة التي تصلح من أمرها فإنَّها جديرة بأن يمدّها الله بمعاونته، أما الأُمة التي تستبيح الظلم وتحلل من الفضائل فإنَّها تستحق أن تقع تحت ظل الاستعباد من الأُمم المجاورة.

علمُ الله تعالى:

إنَّ الله عليم، لم يسبق معرفته جهل، ولا يعدو عليه نسيان، وعلمه محيط بالأمس واليوم والغد والظاهر والباطن، بالسماء والأرض، بالدنيا والآخرة. وما هذا الكون وما فيه من والإتقان إلا برهان على شمول علم الله وحكمته. فمن الحجج الرائعة في القرآن للدلالة على شمول علم الله هي: أن الله خالق كل شيء والذي يخلق المخلوقات كلها فبالأحرى أن يعلم أسرارها وخفاياها: (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك/ 13-14).

وإذا صرّح القرآن بأنّ ﷻ يعلم سريرة الإنسان وعلايته فهو فوق ذلك يعلم كلّ شيء في الوجود تأمل هذه الآية التي تشعر فيها بجلال الربوبية:

(اللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدُّواهُ مِنَ الْكَيْدِ وَالْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَسَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) (الرعد/ 9-10).

فالآية تقول: إنّ ﷻ يعلم ما تحمل كلّ أنثى من جنين ويعلم أذكر هو أو أنثى، وما تنقص الأرحام بالولادة، وما تزداد بالحمل وقتاً بعد آخر، وكلّ شيء عنده سبحانه بقدر وزمان معلوم. ويعلم ﷻ أيضاً ما يغيب عن حسّنا وما نشاهده، وهو سبحانه العظيم الشأن يعلم كلّ ما في الوجود. ويعلم فوق ذلك ما نسر وما نعلن من أفعال وأقوال، ويعلم ما هو مستخف في ظلمة الليل وظاهر في وضوح النهار.

ويعلم ﷻ دقائق هذا الكون وخفائيه: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَيْرِ وَالْبَيْحَرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام/ 59).

يتبيّن لنا من هذه النصوص القرآنية أنّ نظرية الإسلام في ﷻ ليست مجرد نظرية فلسفية ميتافيزيقية كما يعتقد كثير من الغربيين الذين يعتقدون أنّ ﷻ خلق العالم ثمّ عرج إلى السماء ولا شأن له به، بل يعتقد المسلمون أنّ ﷻ يعمل في العالم دائماً فكلّ ما حدث وكلّ ما يتجدّد حدوثه من عمله المستمر.

ليس كمثل ﷻ شيء:

مخالفة الذات الإلهية لغيرها من المحدثات ظاهرة، والبداية تقضي بأنّ مرتبة المخلوق دون مرتبة الخالق بكثير، وأنّ الخالق كذلك لا يشبه شيئاً من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته، فإذا قيل: إنّ ﷻ يسمع فليس ذاك بأذن كأذاننا، أو يرى فليس ذلك بعين كأعيننا، فهو سبحانه غير مخلوقاته، وشأن الألوهية أسمى ما تتصوره العقول القاصرة.

فالفكر في ذات الخالق هو طلب للاكتناه من جهة، وهو ممتنع على العقل البشري لما علمت عن انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب في ذاته وتناول إلى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى، فهو عبث ومهلكة: عبث لأنّه سعي إلى ما لا يدرك، ومهلكة لأنّه يؤدي إلى الخطأ في الاعتقاد، لأنّه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره.

وهذا ما ذهب إليه الدكتور ماريت ستنالي كودج:

"ومما لا شكّ فيه أنّنا نحتاج في محاولتنا لوصف الخالق ومعرفة صفاته إلى مصطلحات ومعان تختلف اختلافاً بيّناً عن تلك التي نستخدمها عندما نصف عالم الماديات.. وبخاصة بعد أن تبين لنا أنّ هذا الكون الذي نعيش فيه لا يمكن أن يكون مادة صرفاً وإنما هو مادة وروح، أو مادة وغير مادة ولا نستطيع أن نصف الأشياء غير المادية بالأوصاف المادية وحدها".

ولكن بعض الناس ضلوا واختلفوا في ذات ﷻ، فبعض الوثنيين يرى: أنّ ﷻ أرواح تمثلها الأصنام والأوثان، ويرى آخرون: أنّ ﷻ حلّ في بعض أجساد أهل الأرض.

أمّا الإسلام فرد الأمر إلى نصابه، وأتى بالقول الفصل في حقيقة ﷻ، ودحض كلّ الشبهات والأباطيل التي رانت على العقول حول الاعتقاد في ﷻ.

ونظرية الإسلام ترى: أنّ للكون خالقاً واحداً متصفاً بجميع صفات الكمال، وتدعو بأنّ نجلاّه عن التشبيه والتجسيد، وعن كلّ صفات المخلوقين. وهذا ما نراه في هذه الآيات القرآنية التي وصفت ﷻ

بهذه الأوصاف:

(لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) (الأنعام / 103). (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى / 11). (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) (طه / 110). (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (الزخرف / 82).

والرسول محمد (ص) أمر بالتفكير في مخلوقات الله، ونهى عن التفكير في ذات الله فقال: "تفكروا في آلاء الله ولا تكفروا في ذات الله" وقال أيضاً: "تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله".

وهذا الذي قرره الإسلام من تنزيه لخالق الكون لم تصل إليه أرقى الفلسفات إلا بعد الإسلام بقرون كثيرة، فنشؤه في جزيرة العرب في ذلك العهد دليل على أن القرآن وحي إلهي.

حياة الله تعالى:

الله مصدر الحياة وهو واهبها لكل حي، فينحتم عقلاً أن يكون متصفاً بالحياة في أكمل صورها، وحياة الله خالدة لا يلحقها فناء ولا نعاس ولا نوم جاء في القرآن:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) (البقرة / 255).

وجاء في القرآن وصف ما يلحق الكائنات الحية التي تعيش على الأرض والصفة الثابتة لله تعالى بأوجز عبارة وأبلغها تشهد بمصدرها الإلهي.

(كُلُّ شَيْءٍ مِّنْ عِلَالِيهِمَا فَانِ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (الرحمن / 26-27).

وحياة الله لا تحتاج إلى طعام كالكائنات الحية. قال تعالى: (قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أَرْتَبَّكُمْ خَلْقَ اللَّيْلِ فَطَارِبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ قُلْ إِنَّ رَبِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوْسَلَّ مَنِ اسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام / 144).

بهذه الآية قطع الإسلام السبيل على الكهنة الوثنيين الذين يأمرون اتباعهم بتقديم القرابين والذبايح للإله أو الآلهة، فلا قرابين ولا ذبايح تُقدَّم للمعابد يستفيد منها الكهنة وحدهم لأن الله لا يأكل، وبهذه الحقيقة الواضحة التي أعلنها القرآن حرر الإنسان من هذه الأباطيل التي انتشرت في كثير من الشعوب قديماً والتي لا يزال البعض يفعلها حتى الآن هادرين بذلك أموالهم وإنتاجهم عبثاً، فلا يخفى أن هذا التوضيح القرآني قد أقفل باباً كان يلجئه الملحدون لاستغلال هذه الشعائر الدينية في سبيل مهاجمة الدين عموماً.

ويصرح القرآن بأن حياة الله منزهة عن الزوجة والولد وبهذا سدَّ الإسلام منفذاً كبيراً تسرب منه أدعياء الألوهية إلى استغلال الشعوب حينما ادعوا أنهم أبناء الآلهة يجب عبادتهم والخضوع لهم، قال سبحانه: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَزْوَاجُ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ) (الأنعام / 101-100).

والمعنى: الله الذي أنشأ السماوات والأرض كيف يكون له ولد مع أنه لم تكن له زوجة، وقد خلق كل شيء وهو عالم بكل شيء، ذلكم الله ربكم، لا إله غيره خالق كل شيء مما كان وما سيكون، فهو المستحق للعبادة فاعبدوه وحده.

سمع ا ب وبصره:

من الصفات التي يتّصف بها الخالق السمع والبصر، ولا يمكن تصور الذات الإلهية دون سمع وبصر، هذه الحقيقة ذكرها القرآن فيما جاء على لسان إبراهيم عندما دعا والده إلى نبذ عبادة الأصنام بقوله: (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) (مريم/ 42). ومعنى هذا القول إنّ الإله المعبود يجب أن يكون سميعاً بصيراً وهذا ما قرره القرآن في آيات كثيرة من ذلك إنّ إحدى النسوة وتدعى "خولة" جاءت إلى الرسول محمد تشكو إليه زوجها، فأُنزل ا عليه هذه الآية: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَيَّ اللَّهُ - وَاللَّهُ يَسْمَعُ نَحْوَ رَكُوعِكَ مَا يَنِ الَّتِي سَمِعَ بِصِيرٍ) (المجادلة/ 1).

كلام ا تعالى:

الكلام من صفات ا، ولكن هناك فرقاً بين هذه الصفة في ا والإنسان فالكلام في الإنسان بالألفاظ ينطق بها أو يكتبها على حين أنّ ا يعتبر متكلماً بالوحي والإلهام يخلقه في روع من يصطفيه، وبالألفاظ يخلقها في نفس كلمه وبالمك يرسله لمن يشاء من رسله وإلى ذلك يصرّح القرآن:

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَ اللَّهُ إِلَّا وَحِيدًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَلَاغُهُ مََا يَشَاءُ إِنَّ نَسَهُ عَلَيَّ حَكِيمٌ) (الشورى/ 51).

والكلام (من وراء حجاب) هو الكلام الذي يكون بواسطة الألفاظ يخلقها ا في قلب من يرفع منزلته بتكليمه، وتلك الحالة هي التي خُص بها موسى (ع) وفي هذا يقول ا تعالى: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) (البقرة/ 153).

وكلام ا ليس له نهاية ولا عدد: (وَلَوْ أَرَادَ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلامٌ وَالْبَحَرُ يَمْدُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مََا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) (لقمان/ 27).

قدّم ا تعالى وبفاؤه:

قال ا تعالى: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الحديد/ 3).

فا هو الأوّل أي قبل كلّ شيء بلا بداية، الآخر أي بعد كلّ شيء بلا نهاية، والظاهر أي بالأدلة عليه، والباطن أي عن إدراك الحواس.

وقال ا تعالى: (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْخُكُومُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (القصص/ 88).

المصدر: كتاب رُوح الدين الإسلامي

